"تهذيب الأخلاق"

المنسوب لعدي بن يحيى وابن عربي والجاحظ

أبي الفداء سامي التُّوني

"علم الأخلاق" فرْعٌ من الفلسفة، يبحث في المقاييس التي يُميز بها بين الخير والشر في سلوك الإنسان، وقد اهتم الفلاسفة المسلمين بعلم الأخلاق وعرّفُوه بأنه: علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها وبالرذائل وكيفية توقِّيها لتتخلى عنها. وهو من العلوم التي تأثر الفلاسفة المسلمون فيها بالفلسفة اليونانية القديمة (الإغريقية) منذ بدأت حركة الترجمة إبان العصر العباسي، وكانت المباحث الأخلاقية قبل ذلك شذرات ومجموعات من الحِكم والأمثال والوصايا والمواعظ التي لا تجمعها نظرية عامة.

ومن أشهر المفكرين المسلمين الذين عُنوا بالتصنيف في علم الأخلاق على أساس منهجي: ابن مسكويه، والغزالي، والطُّوسي، والفارابي، وابن رشد، وإخوان الصفا. ومن الكتب المؤلفة في ذلك: "أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار" للغزالي و"الأخلاق" لعضد الدين الإيجي.

وكتاب "تهذيب الأخلاق" هو أحد المؤلفات في هذا العلم، وهو يبحث بأسلوب فلسفي عقلي الطريقة إلى سُمُوّ الأخلاق، وذلك من خلال أربعة فصول،[1] سُبِقت بمقدمة. تحدثت المقدمة[2] عن أهمية الأخلاق فهي التي تميّز بها جنسُ الإنسان، ثم ذكرت خطة الكتاب.

والفصل الأول[3] في تعريف الأخلاق، وأقسامها، وتأثرها بالنفوس: عرّف فيه "الخُلُق"، وبين أن بعض الأخلاق تكون في بعض الناس غريزة وطبعاً وفي بعضهم لا تكون إلا بترويض النفس والاجتهاد في تدريبها كالسخاء والشجاعة والحِلْم والعفة والعدل ...، وتحدث عن قُوى النفس الثلاثة (النفس الشهوانية، والنفس

---

[1] تقسم الكتاب إلى فصول من صنيع محققه إبراهيم محمد.

[2] ص 10: 12

[3] ص 12: 21

الغضبِيّة، والنّفس الناطقة). ويدور الفصل الثاني[4] حول أنواع الأخلاق، وأقسامها، وبيان المسْتحْسن منها والمسْتحبّ اعتياده ويُعدُّ فضائل، وما المسْتقْبح منها المكروه ويُعدُّ نقائص ومعايب.

وقد قسّم هذا الفصل –تبعاً لأنواع الأخلاق– ثلاثة أقسام:

– الأول: الأخلاق الفاضلة:[5] ذكر فيه واحدا وعشرين خُلُقاً (العِفّة، القناعة، التّصوُّن، الحِلْم، الوقار، الحياء، الودّ، الرحمة، الوفاء، الأمانة، كتمان السرّ، التواضع، البِشْر، صِدْق اللّهجة، سلامة النية، السّخاء، الشجاعة، المنافسة، الصبر عند الشدائد، عِظم الهِمّة، العدل)؛ عرّف كل خُلُق منها، وذكر فضله، وبيّن ما يناسب الخاصة منها وما يناسب العامة، بإيجاز.

– الثاني: الأخلاق الرّدِيّة:[6] ذكر ثلاثا وعشرين خُلُقاً (الفُجُور، الشّره، التبذل، السّفه، الخرق، القحة، العِشْق، القساوة، الغدر، الخيانة، إفشاء السر، النميمة، الكِبر، العُبُوس، الكذب، الخُبث، الحقد، البُخْل، الجُبْن، الحسد، الجزع، صِغر الهِمّة، الجوْر)، عرّف كلا منها، وبيّن قُبحه بعبارة وجيزة.

– الثالث: أخلاق تحتمل أمرين:[7] تحدث في عن أربعة أخلاق هي في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة (حُبّ الكرامة، حبّ الزِّيْنة، المجازاة على المدْح، الزهد).

أما الفصل الثالث:[8] في وصف الطريقة إلى السموّ بالأخلاق: ذكر فيه أنه من الصعب أن تجتمع الأخلاق الفاضلة في شخص واحد، كما أنه قلما يوجد إنسان يخلو من جميع الأخلاق المذمومة، وأن الناس إنما يتفاضلون بالأخلاق لا بالأموال، وقد أرجع سبب اختلاف الناس في الأخلاق إلى سُبُل تعاملهم مع قوى النفس الثلاثة، ومن هنا أدار الحديث حول كيفية السمو بالأخلاق من هذا السبيل بتطويع قوى النفس والسيطرة عليها، وساق شيئا من التفصيل في هذا الصدد.

---

4 ص21: 37

5 ص 21: 28

6 ص 28: 34

7 ص35: 37

8 ص 37: 49

وفي الفصل الأخير:[9] تحدث عن وصف الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق، وقد جمع أوصافه في ثلاثة عشر خُلُقاً: التفقد لجميع معايبه، والقراءة والإحاطة، والاقتصار في الشهوات، ومُفارقة الشهوات الرديئة وهجْر اللذات الدنيئة، والتعود على الكرم، والزهد في المال، وحُسْن التصرف فيه، وترك الغضب، ومحبة الناس والتودد إليهم، وحُبّ الخير وإلفه، وترك القبيح من الأعمال ظاهراً وباطناً، واجتناب العيوب بالكلية، وكره التملق، وهنا تتحقق الثمرة المنشودة، وهي ما خُتِم بها الكتاب إذ قال مؤلفه:

"فإذا فعل ذلك، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه التخلق بالمحاسن، ولم يرضّ من منقبة إلا بغايتها، ولم يقف عن فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقي له الذِّكْر الجميل آجلاً لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية من الكمال فيحوز السعادة الإنسانية والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حُسْن الثناء مؤبداً، وجميل الذكر مخلداً ..."[10]

والحق أن الكتاب بحث فلسفي محض لا يمت للفكر الإسلامي وأصوله بصلة، إلا أن تكون مجرد اللغة التي كُتِب بها، وهي العربية، فمنطلق المؤلف وأصوله وقواعده وفِكره مغاير تماماً فلم يستمد مقاييسه من الكتاب والسنة، بل لم ترد في الكتاب آية أو حديث أو أثر واحد، بل ربما صعب إيجاد لفظ الجلالة فيه ولو لمرة واحدة، وغايته التي ينص عليها من التماس محاسن الأخلاق تحقيق السؤدد وحسن الذِكْر والثناء الجميل بخلاف الفكر الإسلامي الذي يربط هذا بطاعة الله ورسوله والتماس رضاهما، فالكتاب يعبر عن فكر صاحبه –لا الفكر الإسلامي– شأنه شأن كتب فلسفة الأخلاق التي استمدت أصولها من الفكر الوثني الإغريقي.[11]

وقد طُبِع الكتاب في مصر قديماً منسوباً إلى عدِيّ بن يحيى،[12] كما نُشِر أيضا باسم محيي الدين ابن عربي في مجلة المجمع العلمي العربي،[13] ثم نشره محمد كُرْد علي بدمشق سنة 1342هـ/1924م منسوباً إلى الجاحظ معتمداً على نسخة خطية بخزانة المجمع العلمي العربي بدمشق ضمن مجموع، كتبه بخط جميل يوسف

---

9 ص49: 61

10 ص61

11 ومن هنا ارتفعت أصوات مفكرين معاصرين بحاجة الأمة إلى الأخلاق لا فلسفة الأخلاق.

12 انظر: طرازِي: تاريخ الصحافة العربية 68/1

13 مقدمة تحقيق الكتاب ط. مكتبة الصحابة، ص7

معتوق الخواجا، تاج الدين، البعلبكي في أواخر 1047/6هـ، وعن هذه الطبعة أعاد نشره (أبو حذيفة) إبراهيم بن محمد بدار الصحابة للتراث بطنطا (بمصر)، 1410هـ/1989م، في 64 صحة، من القطع المتوسط (وقع النص فيها بين صفحتي 10، 61).

والكتاب بحاجة إلى تحقيق مؤلفه فأسلوبه بعيد كل البعد عن أسلوب الجاحظ وبيانه، كما يستبعد أن يكون لأبي حامد الغزالي وأمثاله، فأسلوبه فلسفي كلامي مجرد. على أن القارئ المتخصص يطلع فيه على مسلك الفلاسفة في الحضارة الإسلامية في نظرتهم للأخلاق وأهميتها وطرق معالجتها، وما كانوا يستحبون منها وما يبغضون، على أن ذلك ينبغي أن يكون بمعزل عن الدراسات المتعلقة بالفكر الإسلامي.